تأمُلات قُرآنية لِما وَرَدَ فيه إنزال أو تنزيل

د. نبيل مبارك عجرة
أستاذ القرآن وعلومه المشارك، قسم القرآن وعلومه
كلية الشريعة، جامعة الريان

الملخص:

من القواعد المفيدة لفهم التنزيل الحكيم، قاعدة: لا ترادف في كتاب الله، فتُظهر هذه القاعدة دقة كلام الله المنزل على محمد ﷺ، وأنه مختلف عن كلام العرب الذي لا يعيبه الترادف ولا الحشو، ومن الدقة التي اتصف بها التنزيل نستطيع أن نصل إلى معان دقيقة نُفرّق بها بين الألفاظ التي يُظن أنها مترادفة، وإن كان أصلها واحدًا ومبانيها مختلفة، فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، ومن هذه الألفاظ لفظتا: الإنزال والتنزيل، وقد أوضحتُ المفهوم المراد منهما في كلام الله، ثم طبقت هذا المفهوم على ما ورد فيه إنزال فقط أو تنزيل، وقد تكوّن هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد أوضحت فيه معنى اللفظتين لغة واصطلاحًا، ثم المبحث الأول وفيه تطبيق المفهوم على ما ورد فيه إنزال فقط، ثم المبحث الثاني وفيه تطبيق على ما ورد فيه تنزيل فقط، وخاتمة اشتملت على خلاصة ما جاء في هذا البحث.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا. أما بعد؛

فلقد أودع الله عز وجل مفاتيح العلوم في كتابه المنزل، فنهل منه العلماء والراغبون، كلٌّ على قدر سقفه المعرفي، فقد تظهر منه معارف وحكم لناظر وتخفى على آخر، فهناك الفقيه الذي يستنبط الأحكام ويستخرج حِكم التشريع وعلله، والنحوي الذي يستشهد به على قواعده الإعرابية، وصاحب الفصاحة يهتدي لحسن النظم، وعوالي الفصاحة، وفيه من القصص والأخبار ما فيه عظات وعبر، ومن الأمثال ما فيه حسن صياغة وصحة اتعاظ، وإلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، من الذين أنار الله بصائرهم للوصول إلى ما كمن في كتاب الله، فهو كلام من حي إلى أحياء.

وقد يظهر من بعض ألفاظ القرآن التكرار، والزيادة حتى يظن الظان؛ أنها تكرار تأكيد، أو زيادة، أو تشابه ألفاظ من غير وجود فائدة، والصحيح أن كتاب الله ليس فيه ألفاظ زائدة بلا معنى أو بلا فائدة، بل وليس فيه ألفاظ مترادفة ترادفًا تامًا، بل هناك ما تشترك فيه الألفاظ المترادفة، وهناك ما تختلف فيه من المعاني، وهذا البحث عنوانه: (**تأملات قرآنية لما ورد فيه إنزال أو تنزيل**)، سنبين فيه بإذن الله الفرق بين اللفظتين في الأماكن التي وردتا فيه، وسنقتصر على ذكر ما ورد فيها الإنزال فقط أو التنزيل. ومن الله نطلب العون والفتح والإلهام.

أولًا– أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أسباب البحث في الاختلاف الحاصل – خصوصًا بين المفسرين – ومن ثم أهل العقائد في التفريق بين معنى الإنزال والتنزيل، وعدم الاستقرار على معنى محدد، نتيجة لعدم استقراء معاني الإنزال والتنزيل من التنزيل نفسه، وكذلك لأخذهم بالحُكم على أن المفردة لها مرادف .

ثانيًا– أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع بالغاية المنشودة منه، فغايتنا التفكر في التنزيل والاسترشاد به، كما أن معرفة الفرق بين التنزيل والإنزال يعد أحد المفاتيح الرئيسة لفهم التنزيل الحكيم، وله علاقة بمبادئ التأويل، حيث توضح وترجح الاختلاف في المعنى، وبيان كثيرٍ من المفاهيم التي لا تتضح إلا بتطبيق المفهوم الوارد في التفريق بين اللفظتين.

ثالثًا– الدراسات السابقة:

سبق أن نشرنا بحث الفرق بين الإنزال والتنزيل، دراسة نظرية، في مجلة جرش، المجلد الثاني والعشرين، العدد الأول (حزيران 2021م/ شوال 1442هـ)، والفرق بين البحث المنشور وهذا البحث، أن البحث المنشور دراسة نظرية للفرق بين الإنزال والتنزيل، والتطبيق على المواضع التي ورد فيها الإنزال والتنزيل مجتمعة، أما هذا البحث فهو تطبيق لجميع ما ورد فيه إنزال فقط أو تنزيل فقط في التنزيل الحكيم.

رابعًا– أهداف البحث:

بالوصول إلى معرفة الفرق بين الإنزال والتنزيل نصل إلى معرفة كنه كثيرٍ من الأشياء وماهيتها، التي ورد فيها إنزال فقط أو تنزيل فقط، كذلك فض بعض الخلاف الوارد في ذلك.

خامسًا– منهج البحث:

سنستخدم بإذن الله المنهج الاستقرائي التطبيقي على جميع الآيات الوارد فيها إنزال فقط أو تنزيل فقط وبيان معناهما كل في موضعه من كتاب الله. وقد كان عملنا في البحث على النحو الآتي:

1- إيراد الآيات من مصحف المدينة، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية أمامها.
2- الاستشهاد بقول علماء التفسير واللغة، للوصول إلى تطبيق المفهوم للفظتين.
3- تخريج الأحاديث، أو الآثار من كتب الحديث والأثر.
4- ذكر توثيق المرجع عند ذكره من أول مرة.
5- إيضاح بعض الألفاظ الغريبة الواردة في الاقتباسات.

سادسًا– خطة البحث:

أتى هذا البحث على؛ مقدمة، وفيها أسباب البحث وأهميته وأهدافه ومنهجه وخطته، والدراسات السابقة.

التمهيد: بيان معنى الإنزال والتنزيل.

المبحث الأول: تطبيق المفهوم على ما ورد فيه إنزال فقط.

المبحث الثاني: تطبيق على ما ورد فيه تنزيل فقط.

خاتمة: وفيها أهم النتائج.

مصادر البحث.

التمهيد: بيان معنى الإنزال والتنزيل.

أولًا– الإنزال والتنزيل في اللغة:

أساس الكلمتين من مادة (ن ز ل) قال ابن فارس: "النون والزاء واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه. يقولون: نزل المطر من السماء، وما إلى ذلك، وتقول: نزل فلان عن الدابة، أو من علو إلى سفل"،[1] ينزل نزولًا، ويقال: نزلت به وأنزلته ونزلته واستنزلته بمعنى. قال سيبويه: وكان أبو عمرو يفرق بين نزلت وأنزلت، ولم يذكر وجه الفرق. قال أبو الحسن: لا فرق عندي بين نزلت وأنزلت إلا صيغة التكثير في نَزَّلْتُ، وفي قراءة ابن مسعود: {وأنزل الملائكة تنزيلا}؛ لأن أنزل كنزل، وقول ابن جني: المضاف والمضاف إليه عندهم، وفي كثير من تنزيلاتهم كالاسم الواحد، إنما جمع تنزيلًا هنا لأنه أراد للمضاف والمضاف إليه تنزيلات في وجوه كثيرة منزلة الاسم الواحد، فكنى بالتنزيلات عن الوجوه المختلفة، ألا ترى أن المصدر لا وجه له إلا تشعب الأنواع وكثرتها؟[2]

"وَفَرَق جماعةٌ من أربابِ التَّحْقِيق، فَقَالُوا: التَّنْزِيل: تَدْرِيجِيٌّ، والإنْزالُ: دَفْعِيٌّ". وقيل: "التنزيل: يختص بالموضع الذي يشير إلى إنزاله متفرقاً منجماً، ومرة بعد أخرى، والإنزال: عام"[3].

يتضح من أقوال أهل اللغة؛ أن الأكثر على أن الإنزال والتنزيل بمعنى واحد، مع أنهم يقرون أن زيادة المبنى تعني غالبًا زيادة في المعنى، وهذا راجع إلى أخذهم القول بالترادف نتيجة لقول سيبويه،[4] ولكن هناك من نفى الترادف في اللغة وعلى رأسهم؛ ابن فارس والجرجاني من المتقدمين، وابن تيمية والزركشي من المتأخرين[5].

ثانيًا– في الاصطلاح:

لقد ذهب كثير من العلماء إلى أن الإنزال والتنزيل بمعنى واحد كما ذكرنا ذلك في معناهما لغة، إلا أن هناك من يفرق بينهما[6]. وباستقراء التعريفات الواردة في مادتي الإنزال والتنزيل نجد أن كل رأي من آراء العلماء قد اتخذ حدًا لتطبيقه على معنى محدود من التنزيل الحكيم، وأهمل الأماكن الأخرى مما أوقعهم في الاضطراب، وهذه الأقوال كالآتي:

الرأي الأول: التنزيل: هو تنزيل الحيثية من ساحة إلى ساحة دون تغيير في ماهية المنزل.

الإنزال: تحول من ساحة إلى ساحة مع تغير في ماهية المنزل وحيثياته[7].

الرأي الثاني: الإنزال: إظهار ما كان في عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

وأصحاب هذا القول يقولون إن الإنزال قد يكون إنزالًا لنفس الشيء كالقرآن، وقد يكون بإنزال أسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللباس[8].

الرأي الثالث: أن المقصود بالإنزال النزول المقامي، أي: نزول من مقام أسمى إلى مقام أدنى[9].

الرأي الرابع: أنزل: تعني الإنزال مرة واحدة أو جملة واحدة.

نزل: تعني الإنزال على مراحل أو أجزاء متفرقة.

وقد رددنا على كل هذه الأقوال في بحثنا الفرق بين الإنزال والتنزيل، فلذا يمكن لنا أن نجمع بين تعريفات العلماء بتعريف قد يكون حلًا في معرفة التفريق بين معاني الإنزال والتنزيل في جميع الأماكن الواردة في الكتاب العزيز.

التنزيل: هو عملية نقل موضوعي (مادي) خارج الوعي الإنساني.

الإنزال: هو عملية نقل المادة من غير المدرك إلى المدرك. أي دخلت مجال المعرفة الإنسانية.

ومن العلماء الذين أشاروا إلى هذا المفهوم؛ الإمام الماتريدي عند تفسيره لإنزال اللباس، والمهايمي في مقدمة تفسيره، والشعراوي عند تفسيره لإنزال الرزق، وسيد قطب عند تفسيره لإنزال الأنعام.

المبحث الأول: تطبيق المفهوم على ما ورد فيه إنزال فقط.

المطلب الأول: ما أنزل على الملكين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ البقرة: ١٠٢.

وما أنزل على الملكين، أي من العلوم التي لم تكن ضمن مدركاتهم، فجعلت ضمن مدركات هذين الملكين، ويمكن أن يكون الملكان غير مهيأين لتعلم هذا العلم فتهيئ لهما أو تهيئا له، بأن دخل في متناولهما، فاستطاعا بالعلم الذي تكون في كيانهما أن يعلما الناس كيفية التعامل بالسحر[10]، وإظهار الأوهام كحقائق، فالعلم الذي سخر لهما، امتحان لغيرهما، فلذا كانا لا يعلمان أحدًا حتى يبينا وينصحا له أن ذلك العلم غير مرضي عنه، وأن علم السحر علم غير مرضي عنه فإن أبى وأصر إلا تعلمه علماه إياه، فيكون ذلك العلم ضررًا على صاحبه أكثر من ضرره على غيره، لذا قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾البقرة: ١٠٢، أي طالِبوا علم السحر. هذا على قراءة الفتح، وعلى الآثار التي جاءت في بيان ماهية هذين الملكين، وأنهما "ملكانِ أنزلا لتعليم السحر ابتلاءً من الله للناس كما ابتليَ قومُ طالوتَ بالنهر، أو تمييزًا بينه وبين المعجزة لئلا يغترَّ به الناسُ، أو لأن السحرَة كثُرتْ في ذلك الزمان واستنبطتْ أبوابًا غريبةً من السحر، وكانوا يدّعون النبوةَ، فبعث الله تعالى هذين الملكينِ ليعلّما الناسَ أبوابَ السحر؛ حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين، وإظهارِ أمرِهم على الناس"[11].

وأما على قراءة (المِلكين) بكسر اللام[12]، وهي "قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك ... ويؤيده ما قيل إن المراد بهما (داود وسليمان – عليهما السلام –) ... وقيل: بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت فشُبِّها بالملائكة، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية ويجلُّونهما أشد الإجلال فشبها بالملوك، وتلك

عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة، يقولون: هذا ملك وليس بإنسان، كما يقولون فيمن كان سيدًا عزيزًا يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه: هذا سلطان زمانه، ... فإن كلمة (أنزل) تستعمل في مواضع لا صلة بينها وبين وحي الأنبياء"[13]. فهذه القراءة (بكسر اللام) يتضح فيها معنى الإنزال جليًا.

"وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي أحكامه، وعده بعضهم من خوارق العادات، وفرقوا بينه وبين المعجزة، ولم يذكروا في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ، ويتكرر بالعمل، فهو أمر عادي قطعا بخلاف المعجزة"[14].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾البقرة: ١٠٢ دليل على تأثير السحر على الإنسان وعلى "أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله"[15].

المطلب الثاني: إنزال الأمنة:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ... ﴾آل عمران: ١٥٤

وذلك أن المشركين بعد غزوة أحد تواعدوا مع المسلمين على النزال بعد سنة في بدر، ولكن المسلمين لم يطمئنوا لأت قريشًا عادت إلى مكة، بل لعل ذلك الوعد باللقاء في بدر بعد سنة تلاعب منهم ليؤمن جانبهم ثم يباغتون المدينة على حين انشغال المسلمين بتلميم الجراح التي أصابتهم في تلك الغزوة، فإنزال الأمنة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾، الأمنة هذه هي: عبارة عن الخبرات الحربية التي دخلت مدارك النبي ﷺ وأصحابه واستقراء الأحداث لاستنباط الآتي، وهذا يكون بالتمرس على أخذ الخبرات من ممارسيها ومن المشاركة في تلك الأحداث. فمن تلك الخبرات الحربية والعسكرية ما ذكره أهل السير أن النبي ﷺ أمر رجلين من أصحابه بأن يستكشفوا جيش قريش، فإن أخروا الأحمال على الإبل وركبوا الخيل فهم عازمون على دخول المدينة، وإن ركبوا الأحمال على الإبل وأخروا الخيل فهم عائدون لمكة، فلما جاءه ﷺ الخبر بأن قريشًا ركبوا الإبل وأخروا الخيل، هناك أعلن الخبر في المسلمين ليطمئنهم وليذهب عنهم الغم الذي أصابهم لما كانوا في شك من رحيل قريش، فأمن المسلمون واستسلموا للنعاس، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان[16]. " ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس. وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين"[17]. وهم "الذين كانوا جازمين بأن محمدًا ﷺ نبي حق من عند الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكانوا قد سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى ينصر هذا الدين ويظهره على سائر الأديان، فكانوا قاطعين بأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال، فلا جرم كانوا آمنين"[18].

وأما الطائفة الأخرى فقد اختلف أهل التأويل في تعيينها على قولين:

الأول: أنهم الذين أثقلتهم الجراح، واستبعدوا النصر "واتفق الرواة أيضًا على أن كثيرًا منهم كانوا مثقلين بالجراح، فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾آل عمران: 154 فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها من المنافقين كما قيل: فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم، وما من أمة إلا وفيها الضعفاء والأقوياء في الإيمان وغيره"[19]. و"كانت الطائفتان جميعًا من المؤمنين، لكن إحداهما قد أتاها النعاس؛ لما أمنوا من العدو، والأخرى لا؛ بعصيانهم رسول اللَّه ﷺ وترْكِهم أمره منع ذلك النوم عنهم؛ إذ كيف يلقون رسول اللَّه ﷺ، وكيف يعتذرون إليه؟ واللَّه أعلم"[20].

الثاني: وهم المنافقون، وهم "الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم، فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم لم يصدّقوا الخبر فلم يذهب عنهم الخوف، فلم ينعسوا"[21]؛ ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ ﴾ آل عمران: ١٥٤ "وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر – أي: النصر والظهور – شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾آل عمران: ١٥٤ الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى. وذلك كقوله – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ ﴾الأحزاب: ٢٠ الآية"[22].

المطلب الثالث: إنزال الأنعام.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ ﴾ الزمر: ٦.

الناظر المتفكر في كتاب الله يجد أن الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان الأنعام كما قال تعالى: ﴿ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ ﴾ يس: ٧٢، وهذا يدل على أن الأنعام ذللت بعد أن لم تكن مُذللة، ونلاحظ أن لفظ الأنعام رغم وروده في اثنين وثلاثين موضعًا من التنزيل الحكيم، ورغم وجود سورة فيه تحمل هذا الاسم هي سورة الأنعام، فإنه لم يرد ذكرها مطلقًا قبل الحديث عن هود عليه السلام، وهذا لا يعني أنها لم تكن موجودة. بل يعني أنها لم تكن قد ذُللت. فالسؤال ما المقصود بالأنعام ومتى ذُللت؟

في الجواب عن الشطر الأول من السؤال نقول: النعم: جمع لا مفرد له يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن. ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ المائدة: ٩٥، فإذا أفردناه إلى نِعمة أو نَعمة صارت شيئًا آخر من حيث الدلالة.

والأنعام جمعُ جمعٍ للنعم، فهو مثله في الدلالة يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن، والأنعام من نعم الله على خلقه كحلقة في سلسلة الدورة الغذائية للبشر والإنسان.

والانتفاع بها لا يقتصر على أكل لحومها، بل يتعداه إلى وجوه قررها سبحانه في كتابه العزيز. كقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾النحل: ٥ – ٧، إضافة إلى جعل جلودها بيوتاً خفيفة في الترحال، وإلى الانتفاع من أصوافها وأوبارها وأشعارها في صنع الملابس والأثاث والمتاع، كما مر في الآية.

والأنعام – بالأصل – هي الحيوانات المستأنسة من آكلات العشب في قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ النازعات: ٣١ – ٣٣، أي: الماء والمرعى متاعًا لكم ولأنعامكم، وإنما قلنا المستأنسة لنخرج منها الغزلان والزرافة والسناجب والثيران الوحشية، وقلنا من آكلات العشب لنخرج منها القطط والكلاب وكل ما له مخالب وأنياب – حسب الحديث النبوي – وإن كان أليفًا، التي لم يحل أكلها ولم تدخل في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾الحج: ٣٠

وقد يسأل سائل: وهل كانت الأنعام محرمة حتى يقال: (وأحلت) بقصد تحليلها؟ نقول: التحليل والتحريم في التنزيل الحكيم يتناول الأفعال ولا يضاف إلى ذوات الأشياء، وهذه واحدة. والحلال هو الأصل في الأشياء والحرام هو الاستثناء، بدلالة قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾آل عمران: ٩٣، إلا في مسألة قتل النفس، إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا، فالحرام هو الأصل والحلال هو الاستثناء. وهذه واحدة ثانية. وفي ضوء هاتين يصبح معنى الآية: أحل لكم ذبح الأنعام لأكلها والانتفاع بها، بعد أن كان ذلك محرمًا بالأصل، عدا ما ذكر التنزيل الحكيم من أنواع بقيت على تحريمها كلحم الخنزير، ورغم أنه من الحيوانات المستأنسة آكلات العشب لذا فإننا نذكر اسم الله عند ذبح الأنعام لنتذكر بأن الله أحل لنا قتلها، وأن التحريم هو الأساس في الدماء[23].

والجواب عن الشطر الثاني من السؤال وهو متى ذَلل الإنسان الأنعام؟ فباستقراء آيات التنزيل نلاحظ أنها لم تذكر في الحديث في قصة نوح ولا قبله، وهذا يدل على أن انتفاع الإنسان من الأنعام كان بالصيد لعدم استئناسها، وثم جاءتنا آيات تذكر أن من نعم الله على الإنسان نعمة تذليل الأنعام، وذلك كان في قصة هود عليه السلام، مما يدل على أنها صارت مستأنسة في زمن بين نوح وهود عليهما السلام.

فما المقصود بإنزال الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾الزمر: ٦

أولًا: نذكر تأويلات العلماء لهذه الآية ثم نطبق المفهوم الذي اقتنعنا به لمفهوم الإنزال في التنزيل الحكيم:

الأول: أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها، فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة.[24].

الثاني: أن معنى أنزل خلق وقضى وقسم؛ إذ كتب في اللوح: كل كائن يكون، فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه[25].

الثالث: أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات الذي تعيش منه هذه الأنعام، فعبّر بإنزالها عن إنزال أرزاقها[26].

الرابع: وهو الذي نرتضيه في كل موضع ذكر فيه الإنزال أن "التعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله. فهذا التسخير منزل من عنده. منزل من عليائه إلى عالم البشر. ومأذون لهم فيه من عنده تعالى"[27].

أي أن معنى إنزال الأنعام إدخال أساليب ترويض الأنعام وترويضها في مفاهيم ومدركات الإنسان، وفي ذلك دليل على أن الأنعام كانت غير مستأنسة، أي غير مروضة، وبعد ذلك مروَّضة إما بطول التجربة للإنسان مع هذه الأنعام، أو بإعلام الله للإنسان عن طريق نبوة، استطاع الإنسان خلالها أن يجعل من الحيوانات المستوحشة حيوانات مستأنسة، وهكذا حتى دخلت في مدارك الإنسانية باقي التسخيرات التي جعلها الله للإنسان من الحيوان.

وقد "يُسمى كل ما خلق من الدواب: أنعامًا، إلا أنه لم يحل لنا منها إلا الثمانية الأزواج التي ذكر، فإن كان هذا فيكون حرف (مِن) حرف تبعيض وتجزئة"[28].

ومما يدل على أن الأنعام منها ما يؤكل ومنها لا يؤكل، وأنها ليست سواء في المنافع قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: 71 – 73]، وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: 5، 6] فذكر تعالى المنافع المشتركة من الأنعام تجاه الإنسان، ثم بين أن منها ما يؤكل تنبيهًا لأن يظن أنها سواء في المنافع لذا عاد لسرد باقي المنافع المشتركة.

المطلب الرابع: إنزال آية.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الرعد:٧

الآية تأتي في كتاب الله على معانٍ، منها:

1- طائفة ذات مطلع ومقطع، مندرجة في سورة من القرآن. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ١٠١ .

2- العلامة. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٨ أي: علامة ملكه.

3- العبرة. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ البقرة: ٢٤٨ أي عبرة لمن يعتبر[29].

4- المعجزة الحسّة الكونية أو المعقولة المشهودة المناسبة لمن شهدها. ومنه قوله تعالى: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾البقرة: ٢١١، أي: معجزة واضحة. وهو المقصود في بحثنا هذا، فجاء في ثلاثة مواضع من كتاب الله، طلب الكافرين من النبي ﷺ أن يريهم آية قال تعالى: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن

رَّبِّهِۦ ﴾[30] أي: " هلَّا أنزل على محمد آيةٌ من ربه: عَلَمٌ ودليلٌ نعلم به أن محمدًا محق فيما يقول؟"[31]. "كأنهم لفرط العتوِّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابرة والعِناد لم يعدّوا البيناتِ النازلة عليه صلى الله عليه وسلم من جنس الآياتِ واقترحوا غيرَها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرةِ والمعجزاتِ المتكاثرةِ ما يضطرهم إلى الانقياد والقبولِ لو كانوا من أرباب العقولِ"[32] فحكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض المواضع، واقتراح آيات معينة حددوها في سور أخرى، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ... ﴾ الإسراء: ٩٠ – ٩١ ، فجاءت الأجوبة الثلاثة للرد على المشركين في المواضع الثلاث:

1- ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ يونس: ٢٠، أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده ؛ لأنها خوارق فوق قدرة البشر، وإنما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره، فإن كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه، وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي فانتظروا إني معكم من المنتظرين لما يفعله بي وبكم إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم[33].

2- ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾الرعد: ٧، المراد أن الرسول ﷺ منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن، فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى"[34].

3- ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ الرعد: ٢٧ : "هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١ [35]"، " وإن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، ولكن الإضلال والهداية من الله، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة، وهدى أقواما آخرين إليها، حتى عرفوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات"[36].

وأما تطبيق مفهوم الإنزال على إنزال الآية فنقول:

إن أهل العناد من كفار العرب في زمن النبوة طلبوا من النبي ﷺ أن يظهر لهم معجزة: آية كونية حسّية مشاهدة، تكون معضده له في دعوى النبوة، وأن تكون تلك المعجزة من جنس المعجزات التي حدثت للأنبياء قبله، أي أن تدخل ضمن معارفهم وحدود إدراكهم، بقدرتهم على فهم كنه هذه الآية وعدم إخراجهم عن اختيارهم في التصديق وعدمه، "كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا"[37]، لذا بين الله أن من أسباب إمساك الله عن إرسال مثل هذه الآيات أن التكذيب بها مدعاة للعذاب[38]، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ الإسراء: ٥٩.

لأجل ذلك عبر الله عن طلبهم هنا بلفظ (أنزل) لدخول تلك الآية ضمن سقفهم المعرفي، وأن تكون داخلة ضمن إدراكهم كما دخلت الناقة لقوم صالح، وإتيان المن والسلوى، ونبع الماء لقوم موسى، قال تعالى: ﴿ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ الأنبياء: ٥. أما إن كان التعبير بلفظ: (نزّل) فلا يكون هناك خيار في قبولها وردها كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٣٧ ، والمعنى هنا أن للإنسان خيارين إما نعم أو لا، لكن ثمة قوة قاهرة خارجية تجبره على اختيار واحد وتعطيل الأخر، كما هو واضح في هذه الآية وفي قوله: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ الشعراء: ٤ ، لاحظ هنا كيف استعمل لفظ التنزيل لا الإنزال، أي تنزيل آية مادية من خارج إدراكهم ووعيهم، تخضع لها أعناقهم، فيؤمنوا جميعًا خوفًا وقهرًا دون أن يكون لهم خيار للامتناع[39].

المطلب الخامس: إنزال السكينة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ الفتح: ٤

السكينة[40] في اللغة: من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك، أو من السكن – بالتحريك – وهو كل شيء سكنت إليه النفس وهدأت. والوداعة والوقار[41].

واصطلاحًا: السكينة: "ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن، وهو مبادي عين اليقين"[42]. "وما يسكن إليه القلب والنفس، ويوجب الأمنة والطمأنينة"[43] و"سكنت قلوبهم واطمأنت بعد شدة الخوف والحزن بأي وجه ما، تسكن بالملائكة أو بغيرها[44]. "قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى "السكينة"، ما قاله عطاء بن أبي رباح: من الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات التي تعرفونها"[45]. "والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد"[46].

وإنزال السكينة يأتي بمعان، منها: نصرته، ووقاره، ورحمته، وطمأنينته.

وعلى المفهوم الذي ترجح لدينا في مفهوم الإنزال نقول إن السكينة: شيء لا يكون ضمن مدركات الإنسان ثم تتهيأ الظروف المعينة ليدخل ذلك الشيء ضمن مداركه، فلا يستطاع على استجلابها أو نبذها متى

شئنا لأنها غير مدركة، "وإنزالها: إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة، وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفًا لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوب الناس، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية"[47]، فلذا تجد هناك من يعترك مع نفسه ليستجلب السكينة فيستطيع، وهناك من لا يقدر لعدم توفر الاستجلاب لديه، وتدركها حواسه بحيث يتهيأ لها المناخ المناسب فيشعر بها، وكأنها شيءٌ محسوسٌ، فتثبت بعد ذلك الأعضاء، ويذهب التوتر والخوف؛ ليحل محله الشجاعة والإقدام، وهذا الذي حصل لبني إسرائيل بعد تأييد الله لهم بالتابوت الذي يشعرون معه بتلك السكينة[48]، والنبي ﷺ في حنين بعد زعزعة قلوبهم ورهبتهم من الهزيمة حل محله الثبات والإقدام، ثم عقب ذلك النصر.

"فمعنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ التوبة: ٢٦.. [49] أي أفرغ الله طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين الذين كانوا معه"[50] فأحسوا بها وامتلأت قلوبهم بها وثبتت جوارحهم فعادوا أشد مما كانوا.

"واعلم أن قوله تعالى: ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين يدل على أن الفعل موقوف على حصول الداعي، ويدل على أن حصول الداعي ليس إلا من قبل الله تعالى"[51] لرسوله ومن رسوله للمؤمنين، "وإنما ذكر الرسول لأن السكينة إنما نزلت على المنهزمين ببركة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وبتوسطه نزلت على غيره"[52]، فلذا كان ﷺ ضمن الأسباب التي جعلت السكينة تدخل مدركات المؤمنين، وساعدهم رؤيته ثابتًا على الاتزان ومراجعة ما توهموه من عدم القدرة.

وفي قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾الفتح: ٤، السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٨ في قول أكثر المفسرين، ويحتمل هي تلك المقصود منها على جميع الوجوه: اليقين وثبات القلوب، فهي سبب ذكرهم الله كثيرًا ومراقبته كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨.

وقوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح: ١٨، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾الفتح: ١٧، فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية، وفي هذه الآية بين أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان"[53]، "فعلم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم. وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم. وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين"[54] وعلم ما في قلوبهم تجاهه ﷺ سواءً في ذلك من صدق ومن تردد أثناء البيعة على الموت، فلما دخلت السكينة مداركهم اطمأنوا فأيقنوا فشرفهم الله بالرضوان.

وقوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفتح: ٢٦، "هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة. الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول ﷺ إلى إلهام ربه، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق، ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة وفي كل حركة، لا يستفزه عنه مستفز، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية. ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم، ففاءوا إلى الرضا واليقين والقبول الخالص العميق كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر، شأن الصديق أبي بكر رضي الله عنه الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله – صلى الله عليه وسلم"[55].

"قال في حق الكافر (جعل)، وقال في حق المؤمن (أنزل)، ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، معدة لعباده فأنزلها"[56]، وإنزالها بتهيئة أسبابها لهم، فغرس في نفوسهم الوقار في مقابلة العنجهية التي يقابلهم بها أهل الجاهلية، فأنزل بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة.

المطلب السادس: إنزال الرزق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩

أرزاق الناس لا تأتي إلا من خيرات الطبيعة ومن كسب الإنسان، لقوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ يس: ٣٥ ، وقد ذكرنا في إنزال الأنعام أن الله خلق كثيرًا من الحيوانات لأجل خدمة الإنسان وتسيير معايشه، ومنها الأنعام إذ إنها وجدت على هذه الأرض مع الإنسان أو قبله، إلا أن الإنسان استطاع أن يروض كثيرًا منها، فقدرته على ترويض الأنعام لحمل الأثقال أو للحرث أو للغذاء هو المقصود من لفظ الإنزال، وهذه الأنعام ضمن الرزق الذي هيأه الله للإنسان، ولكن ذلك الرزق يحتاج منا إلى اكتساب مهارات لاستطاعتنا إدخاله ضمن معارفنا ومكتسباتنا التي تعيننا على الاستمرار في الحياة، وما في الكون هو رزق، ولكنه ينقسم على رزق مباشر، تستفيد منه فورًا، وهناك رزق غير مباشر، ومثال ذلك: النار، فأنت لا تأكل النار، لكنها تُنضِج لك الطعام، إذن فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد على إنتاج ما يفيدك، والوصول إلى ذلك هو الذي سماه الله الإنزال. "إذن فالمراد هنا بالإنزال، أي: الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان[57]"، باكتساب معارف تعينك للوصول إلى كيفية الانتفاع بهذا الرزق.

فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا ﴾، "يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين: (أرأيتم) أيها الناس، ما خلق الله لكم من الرزق[58] فخوَّلكموه، وذلك ما تتغذون به من الأطعمة رِّزْقٍ ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ ، يقول: فحللتم بعضَ ذلك لأنفسكم، وحرمتم بعضه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم

الله به فقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٦ [59]". فبعد دخول تلك المطعومات مداركنا بمعرفة الوسائل التي تجعل ذلك الرزق مهيئًا لنا متى شئنا، تعدَّى أهل الجاهلية تلك المعرفة إلى التحليل والتحريم وهي من خصوصيات الله تعالى، فلذا أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: هل عندكم إذنٌ من الله بالتصرف بهذه الخصوصية، هل أعطاكم الله سبحانه تفويضًا في جَعْلِ الحلال حرامًا، والحرام حلالًا؟ أم أنكم تفترون عليه بهذا التعدي، و"هاتان الآيتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من أفعالهم لا ينكرونه ولا يجادلون فيه، تعزيزًا لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته، ودفع شبهاتهم عليه، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التحريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده، وقاعدة كون الأصل في الأرزاق وسائر الأشياء التي ينتفع بها الخلق الإباحة، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع الخاص بربهم افتراء عليه وكفرًا به، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسول الله ﷺ في كونه مبلِّغًا لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكدًا لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه"[60].

فقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾" أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من سماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان، وكل عطاء منه تعالى يعبر عنه بالإنزال كقوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾الزمر: ٦، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد: ٢٥ "[61] "أضاف إنزاله إلى السماء، وإن كانت الأرزاق إنما تخرج من الأرض لما كانت أسبابها متعلقة بالسماء، يكون نضج الإنزال وينع الأعناب وإصلاح الأشياء كلها أعني أسباب الأرزاق من نحو المطر الذي به تنبت الأرض النبات، وبه يخرج جميع أنواع الخارج مما يكون فيه غذاء البشر والدواب، ومن نحو الشمس التي ينضج بها الإنزال وبها تينع الأعناب وجميع الفواكه ونحوه أضاف ذلك إلى السماء لما ذكرنا، وكذلك قوله: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ الذاريات: ٢٢، أي: أسباب ذلك في السماء؛ لا أن عين ذلك في السماء[62]". وبعد معرفة الإنسان لتلك الأسباب ودراستها، دخلت ضمن سقفه المعرفي، فعمر الأرض، بالزراعة، وتربية الحيوان، "ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم. وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض. وهو أوسع من ذلك بكثير. وما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزق بعد رزق في السماء والأرض، يستخدمونه أحيانًا في الخير ويستخدمونه أحيانًا في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتل. وكله من رزق الله المسخر للإنسان؛ فمن سطح الأرض أرزاق، ومن جوفها أرزاق، ومن سطح الماء أرزاق، ومن أعماقه أرزاق، ومن أشعة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق. حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق! ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ يونس: ٣١ [63]"، واليوم استخرج كنوز الأرض التي يقوم عليها رزق الإنسان الأساسي من مشتقات نفطية

ومعادن، و"إن تمتع الإنسان في الحياة بالمِلْك والمِلْك، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى[64]".

المطلب السابع: إنزال الرجز.

قال تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾البقرة: ٥٩

الرِجْزُ: القَذَرُ، مثل الرِجْسِ... وأمَّا قوله تعالى: ﴿ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فهو العذاب.[65]

فمن الألفاظ التي استخدمها القرآن لبيان ما يصيب الكافرين والمعرضين عن حكمه لفظة (الرجز)، وقد ذكر الله عن بني إسرائيل "أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾البقرة: ٥٩[66]، ويدل قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بني إسرائيل ، وأن هذا الرجز كان خاصًا بالظالمين منهم، الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه، وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر، فقال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا ﴾، ولم يقل : فأنزلنا عليهم؛ ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إبهام كون الرجز كان عامًا، كما هو الغالب فيه، ثم أكده بتأكيد آخر، وهو قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾، وفي هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه[67]. رِجْزًا عذابًا من السماء، ومن المعلوم أن العذاب نوعان: نوع يمكن دفعه: وهو عذاب المخلوقات كالهدم والغرق، ونوع لا يمكن دفعه: كالطاعون والصاعقة والموت، والمراد به هذا النوع الثاني[68].

من استقراء الآيات التي تدل على إنزال العذاب على بني اسرائيل بمسمى (الرجز) دلالة على أنه كان وباء يعرفه أهل ذلك الزمن، قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: (إن هَذَا الطَّاعُون رجز وَبَقِيَّة عَذَاب عذب بِهِ أنَاس من قبلكُمْ)[69]، فَإِذا كَانَ بِأَرْض وَأَنْتُم بهَا فَلَا تخْرجُوا مِنْهَا وَإِذا بَلغَكُمْ أَنه بِأَرْض فَلَا تدخلوها، ولربما أنهم كانوا يجدون لبعضهم دواء ولكن هذا الرجز الذي أنزله الله عليهم لم يستطيعوا أن يجدوا له علاجًا حتى أهلك منهم الكثير، ويدل على ذلك وصفه تعالى لهذا الرجز بالإرسال في موضع آخر، "والفارق بين «الإنزال» وبين «الإرسال» أن الإنزال يكون مرة واحدة. أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل" كذلك لأن الإنزال لا يشعر بالكثرة، والإرسال يشعر بها، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعله كثيرا[70]. كذلك من الروايات التي ساقها المفسرون أنه قد مات في يوم واحد منهم ألوف على خلاف في تحديد العدد، قال ابن

زيد ومقاتل وغيرهما: "إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أمروا الطاعون فأذهب منهم سبعين ألفا"، وقال ابن عباس: "أمات الله منهم في ساعة واحدة نيفا على عشرين ألفا"[71]. إذن لماذا قال الله تعالى من السماء مع أنه وباء معروف؟

الجواب عن ذلك كما يأتي:

أولًا: أنّ سُنّةَ اللهِ لا تتبدّل ولا تتغيّر في التعامل مع الأقوام السابقة واللاحقة، وأنه يرسل آياته الكونية فيأخذ اللهُ بها المكذِّبين بالبأساء والضراء؛ لعلّ قلوبهم ترِقُّ وتلينُ وتتّجه إلى الله، وتعرف حقيقة ألوهيته. فإذا هم تكبّروا ولم يستجيبوا؛ ابتلاهم بالنعماء والسرّاء، وفتح عليهم أبوابَ كلّ شيء، حتى إذا انتهى بهم اليُسْر والعافية إلى الاستهتار وقلّة المبالاة والأمن من مكرِ الله، وظنوا أنهم مسيطرون على أقدارهم وأنهم قادرون على التحكّم في مصائرهم، وتوهّموا أن الدنيا سائرة بلا قصد ولا غاية، أرسل لهم مرّة أخرى الآيات الدالّة على ضعفهم وهوانهم، فحلَّت بهم الضرّاء والبأساء لعلّهم يدركون قدرةَ اللهِ وعظمته، ويتدبّرون حكمته في تقلّب الأمور بالعباد، فإنْ لم يرجعوا عن غيّهم ويتقوا غضبه بالتوبة والأوبة، وعاشوا كالأنعام بل أضلّ، جاءهم بأسُ الله الأكبر بين يدي يوم عظيم أعاذنا الله من غضبه وسخطه.

ثانيًا: أن الله قد قدر كل شيء، ومن هذه الأشياء وجود الأوبة في الكون، ومتى ما أذن سبحانه بظهورها ظهرت، وبعد ذلك تدخل ضمن مدارك الناس وذلك بدراستها ووجود علاج لها، وهذا يتطابق تماما مع المفهوم الذي وصلنا إليه لبيان لفظة الإنزال في القرآن الكريم. وخلاصة الآيات تتمثّل في تعرّض قوم موسى للرجز باعتباره طاعونًا وعذابًا اضطربت له النفوسُ والأبدانُ، وذكر الله بأنه أتاهم من جهة السماء وذلك لإشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه حتى حين.

المطلب الثامن: إنزال اللباس.

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا ﴾الأعراف: ٢٦، "بعد أن أمر الله تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض مستقرًا لهما، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدين والدنيا، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا. وذلك يقتضي شكر الله على نعمه العظيمة وعبادته بحق"[72]. و"اللباس للإنسان مظهر تحضر وتمدن وعنوان احترام للآخرين، أما العري وإظهار الأعضاء فهو مظهر من مظاهر البدائية والتخلف، يتفق مع حالة الإنسان البدائي وطريقة عيشه في الصحاري والوديان، لذا امتن الله تعالى بإنعامه على البشرية، إذ أوجد لهم أنواع الألبسة لستر العورات والعيوب، ومختلف الرياش والأصواف للتنعم والراحة"[73].

من أجل ذلك نجد أن علماء التفسير يذكرون أن المقصود بإنزال اللباس إنزال أسبابه[74]، قال الزمخشري: "جعل ما في الأرض منزلًا من السماء، لأنه قضى ثمة وكتب، أي قضى وقسم لكم، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح المحفوظ"[75].

وذكر ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول أنه: لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث، وهذا – والله أعلم – معنى إنزاله، فإنه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار، وينتفع به بنو آدم في اللباس والرياش، فقد أنزلها عليهم، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان[76]. أي أنزل الماء والأسباب التي بها يتخذ اللباس والأطعمة والأشربة، والعلم في ذلك الماء والأسباب، والعلم بذلك، وإلا ما عرف الخلق أن كيف يتخذ ذلك لباسًا والأطعمة والأشربة، وأنشأ لكم ما تتخذون منه اللباس والطعام والشراب[77]،كذلك تجد أن جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الإنزال، "والتعبير بأنزلنا يفيد خصوصية البشر باللباس الذي يستر العورة، وبالرياش التي يتزينون بها، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوآتكم، ولباسًا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح وحُبها من طبيعة البشر"[78]. فما المقصود بالإنزال للباس والريش في هذه الآية الكريمة؟

الجواب على ذلك يستنبط من عبارات المفسرين لهذه الآية، الموافق لتطبيق معنى الإنزال في القرآن الكريم وهو: أن الإنزال هو عملية وعي وإدراك ومعرفة بشيء من المقدرات التي قدرها الله لبني آدم في الأرض.

يقول المراغي: "ومعنى إنزال ما ذكر من السماء – إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما ولدته الحاجة وتفنّن الناس فى استعماله، بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فيهم من الغرائز والصفات التي بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عد، ولاسيما في هذا العهد الذي رقيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية"[79].

أما قوله: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾الأعراف: ٢٦، فهذا يعني أن الإنسان كان عاريًا لا يعرف اللباس، ثم عرف بعد ذلك الغطاء " السرابيل"، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ النحل: ٨١، إنها القمص تقي الحر والبرد، فاكتفى بذكر الحر؛ لأن ما وقى الحر وقى البرد[80]. والسرابيل هو اللباس غير المخيط، ولعله أول ما وصل إليه الإنسان البدائي؛ لقلة الوسائل التي لديه، وذلك بعد ما كان يستخدم الأوراق لتغطية عورته، كما بينه علماء الحفريات، ويُذكر أنَّ نبي الله إدريس – عليه السلام – هو أول من خاط الثياب ولبسها؛ إذ كانوا في ذلك الوقت قبيلة يلبسون الجلود، ويجدر بالذكر هنا أنَّ الخياطة اليدويّة تعود إلى (20,000 عام)؛ إذ كانت إبر الخياطة الأولى مصنوعة من عظام، أو قرون الحيوانات، وكانت أول الخيوط المستخدمة مصنوعةً من أوتار الحيوانات، وفي القرن الرابع عشر تمَّ ابتكار الإبر الحديديّة، وفي القرن الخامس عشر ظهرت إبر العين الواحدة.

فمَنْ علَّم الإنسان ربط قطعة جلد بقطعة جلد أخرى عن طريق المخيط[81]؟! الجواب: إن الله أعطى قفزة للناس بأن علمهم هذه الظاهرة عن طريق النبوات، "لأنهم لم يعرفوا ذلك إلا بوحي من السماء"[82].

وأما الريش فهو: "لباس الزينة، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يوارى سوءاتكم، ولباسًا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح"[83]. وقال الجوهري: الريش والرياش بمعنى، كاللبس

واللباس، وهو اللباس الفاخر. وقيل من فعل "رَيَشَ" وهي كثرة المال والخصب والمعاش أي: النقد. وهذا يدل على أن "الرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به، وهو ظاهر الثياب. كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال.. وهي كلها معان متداخلة ومتلازمة"[84].

فهنا نقول: من علم الإنسان ظاهرة التجريد الاقتصادي في تبادل السلع؟ لقد قام الاقتصاد على تبادل السلع على مبدأ المقايضة أولًا، فلكي تنقل هذه العملية من المشخص إلى المجرد وجب أن يكون هناك وحدة قياس للسلعة، وهذا ما يسمى بالنقد، وهي عملية تجريد بحتة لتبادل السلع. فهنا نقول إن الله سبحانه وتعالى علمهم إياها عن طريق النبوات، وأعطى الناس دفعة إلى الأمام.

المطلب التاسع: إنزال الحديد.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾الحديد: ٢٥.

الحديد من المعادن التي عرفها الإنسان قديمًا، وكانت معرفة الإنسان للحديد نقلة نوعية كبيرة في حياة الإنسانية، وقبل أن نؤوِّل الآية الكريمة وفق ما توصلنا له من معان للإنزال والتنزيل، نشير إلى مسألة مهمة، وهي: أقوال العلماء في تكون عنصر الحديد على الكرة الأرضية، من العلماء من يؤكد أن الحديد معدن تم إنزاله من السماء ولم يكن موجودًا في الأرض، إذ إن انفجار النجوم العملاقة ساعد على تشكل الحديد الذي تم قذفه على شكل نيازك اصطدمت بالأرض واستقرت في باطنها[85]، فتكوين الحديد يستلزم طاقة غير موجودة على الأرض ولا حتى في المجموعة الشمسية[86]، والقول الآخر أن كل المواد الموجودة على الأرض كانت موجودة قبل وجود الأرض على شكل غبار في الحيز الذي تكونت منها الأرض، تجمعت هذه الجزئيات والصخور صخرة فوق صخرة وحجرًا فوق حجر، وأن المواد التي تأتي للأرض مع النيازك والشهب وغيرها لا تصل إلى واحد من عشرة بالمائة من المواد الأصلية للأرض.

كذلك نجد علماء التفسير اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾، فمنهم من ذهب إلى أن الحديد نزل من السماء نزولًا حقيقيًا بعد تكون الأرض بواسطة الشهب التي ترجم نحوها، ومنهم من ذهب إلى أن قوله تعالى: {أنزل} معناها جعل وخلق وقدر، أي: أن الله خلق الحديد على الأرض كما خلق باقي المعادن، فلا يوجد أي معدن نزل على الأرض بعد تكوينها.

وعلى مفهومنا لكلمة (أنزل) في القرآن فإننا نميل إلى القول الثاني من أقول المفسرين، في وجوده ضمن المعادن الأخرى المكونة للأرض، ولذلك يكون إنزال الحديد معناه دخول معلومة كانت غير مدركة ثم صارت مدركة للعقل الإنساني، وهي إمكانية استخراج الحديد وتشكيله.

فالحديد موجود في الطبيعة ولكنه موجود بشكل فلزات وغير موجود حر، واستخراجه من الأمور الصعبة بخلاف الذهب والفضة، ولكن كيف اكتشف الإنسان الحديد؟ هناك علامات تدل على أن الإنسان اكتشف الحديد مبكرًا، وذلك بعد أن كان يستخدم أدوات من الحجارة كسلاح للصيد وكآنية للأكل والشرب، فالحديد من المعادن التي عرفها الإنسان القديم، وقد كان اكتشاف الإنسان للحديد طفرة في حياته مما يدلنا

على أن الإنسان اكتشف الحديد ودخل مداركه عبر نبوة من النبوات، فعندما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ فهذا يعني إعلام الله الإنسان بعنصر الحديد وفوائده، ولا يكون ذلك إلا عن طريق نبوة، فلم يكتشف الحديد صدفةً، لأن الله عرفنا بمنافعه التي علم من نزل عليهم القرآن، ما يشكله الحديد في وقتهم، وزدنا نحن معرفة بما زاده استخدام هذا العنصر المهم في حياتنا، لأجل ذلك قال تعال: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وهذا هو سر معرفة الإنسان للحديد في مرحلة مبكرة، فهنا تدخل سبحانه ليعطي طفرة معرفية في استخدام الحديد لذا قال ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، وأنه لم يقل: وأنزلنا النحاس أو الذهب أو النار؛ لأن الإنسان اكتشف النحاس والذهب والنار دون نبوة بل بالملاحظة الزمنية الطويلة.

كذلك إذا كانت الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ لكان المعنى أن الحديد مادة موضوعة خارج نطاق الأرض، وأن الله نقله إلى الأرض، أي أن الحديد انتقل موضوعيًا إلى الأرض من مكان ما، كقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ لقمان: ٣٤، لذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا...﴾ ليدل على أن الحديد موجود ضمن مكونات الأرض ولم يأتِ من خارجها، وهذا إعجاز لغوي وعلمي، فمن أين لمحمد ﷺ هذه المعلومة التي لم تظهر سوى في القرن العشرين. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت: ٥٣.

المبحث الثاني: ما جاء فيه تنزيل دون إنزال.

المطلب الأول: تنزيل جبريل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٩٧

جبريل: "اسم أعجمي عربته العرب فلها فيه لغات، فبعضها موجودة في أبنية العرب، كجبريل الذي هو كقنديل، وبعضها خارجة عن أبنية العرب فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تدخله في بناء كإبريسم وفرند وآجر ونحوه.

وذكر ابن عباس رضي الله عنه وغيره أن (جبر وميكو وسراف) هي كلها بالأعجمية، بمعنى عبد ومملوك، (وإيل) اسم الله تعالى، ويقال فيه إلّ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: هذا كلام لم يخرج من إلّ"[87].

لقد تحدثنا في بحث الفرق بين الإنزال والتنزيل بأن القرآن الكريم ذكر للملائكة إنزال وتنزيل، فإنزال الملائكة دخولهم ضمن مداركنا، كرؤيتهم يقاتلون مع المسلمين، أو إنزالهم نذرًا مع الأنبياء، وجاء ذكرهم بالتنزيل، وذلك أنهم مادة موضوعية خارج الوعي الإنساني وعدم استطاعة مداركنا تفسير ما يحدثونه من أوامر الله، واستيعابه، وذلك كزعزعة قلوب المشركين، وبث الرعب في قلوبهم، وقد حدث الإنزال لجبريل عندما يأتي كهيئة إنسان، والتنزيل له عندما يأتي النبي ﷺ له ستمائة جناح قد سدت الأفق. وقد تنزل جبريل بالقرآن

الكريم على النبي ﷺ بعد أن تم جعله وإنزاله من صيغة غير مدركة إلى صيغة مدركة، فلذا قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء: ١٩٥.

فذكر الحق سبحانه تنزيل جبريل عليه السلام في آيتين، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ البقرة: ٩٧، وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٣ – ١٩٤. ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ "قال أبو جعفر: "أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم[88]، وأن ميكائيل ولي لهم"[89]. وفيها بيان سبب الجحود الذي وصل إليه اليهود في زمن النبي ﷺ بعدم الإيمان به بحجة واهية، وهي أن الذي تنزل عليك بالقرآن هو من ينزل بالعذاب والعقاب، وما ذلك إلا لأنهم استعظموا أن يكون ذلك لغير ذرية إسرائيل، على القول الموافق لسياق الآيات. "فَأَكذبهم اللَّه – تعالى – بزعمهم، فقال: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، لا كما تقول اليهود. وما ينزل من العذاب والشدائد، إنما ينزل بأَمره، لا من تلقاءِ نفسه وذَاته"[90]. وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبريل – عليه السلام – نزل بالخير لهم في دينهم وفي دنياهم. ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لا تفرق بين الخير والشر.

فقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يدل على أن جبريل عليه السلام غير مُدرك للنبي ﷺ حين تنزله بالقرآن، وتلك الطريقة التي ينزل بها على قلب النبي ﷺ أشد طرق الوحي التي أخبر عنها النبي ﷺ كما في الأثر. وسواءً كان الضمير في قوله: {نزله} على القرآن باعتبار أنه حاضر للذهن، أو على جبريل لأنه سبب الحديث القرآني، فالتنزيل بالمعنى الذي ارتضيناه حاصل فيهما، ويدل عليه تأويل قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾، فقراءة التشديد لقوله: {نزَّل} ونصب {الروحَ} فيكون التنزيل هنا لجبريل بحيث أنه مخلوق غير مدرك لبني آدم وليس في متناول عقولنا، وأما قراءة التخفيف: {نزَل} ورفع {الروحُ} فيكون القرآن هو التنزيل لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٢، ويتناول جبريل لأنه الأداة التي يتوصل بها إلى قلب النبي ﷺ، ويرفع توهم "أن يكون تنزيلًا من الله تعالى إلى محمد ﷺ بلا واسطة، فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ الشعراء: ١٩٣ "[91]. فـ"جعل الله الروح نازلًا به عَلى قَلْبِكَ أي: حفظكه وفهّمك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ الأعلى: ٦ "[92].

والمقصود بـ"الروح الأمين جبريل عليه السلام، وسماه روحًا من حيث خلق من الروح، وقيل: لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل: لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح، وسماه أمينًا لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم"[93].

والتنزيل على القلب "للإشارة إلى أن القرآن ينزل على القلب ليحفظ في الصدور، لَا أن يكتفى فيه بالسطور؛ لأن السطور يجري فيها التصحيف والتحريف، أما ما يحفظ في القلب فإنه في أمان لَا يجري فيه تغيير ولا تبديل"[94].

المطلب الثاني: تنزيل الشياطين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ الشعراء: ٢١٠

"الشياطين جمع شيطان، والشَّيطانُ: فيعال من شطن، أي: بعد. وهو: كلُّ عاتٍ من الإنس والجنّ والدوابّ"[95]. والمقصود به هنا مردة الجن من ذرية إبليس. فالشياطين مخلوقات سيئة الطباع؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، ابتلى الله بهم بني آدم وأعطاهم من القدرة على التشكل وتحمل المشاق في سبيل إظلال الخلق.

فبعد أن أبان الحق سبحانه الملك الموكل بنزول القرآن بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ الشعراء: ١٩٢ – ١٩٣ ، بين الرد على الشبهة التي تقول إن محمدًا ﷺ معه شيطان يملي عليه، شأنه شأن الشعراء[96] والكهنة، فأبان تعالى أن الشياطين ليسوا أداة لنقل القرآن، لأن طبيعتهم غير قادرة على ذلك، فمع إثبات تنزلهم، نفي مقدرتهم على تحمل كلام الله تعالى.

وقد جاء في الآثار أن الشيطان أملى على النبي ﷺ كلامًا باطلًا وهو يقرأ على قريش سورة النجم بعد قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ النجم: ١٩ – ٢٠ (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) بصوت يشبه صوته ﷺ حتى لا يتغير عليه الإلهام ولا يتوحش من الاستجلاب. ومع احتمال صحة الخبر فإن ذلك ينجلي عنه ﷺ بنسخ الله ما يمليه عليه الشيطان[97]، قال تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الحج: ٥٢، فالأمر في تنزل القرآن ليس إلا لمن اصطفاه الله من ملائكته، وأما الشياطين فهم عن سماعه معزولون فكيف بتحمله،؟! وإن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ "يقول تعالى ذكره: وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين على محمد، لكن، كيف والكتاب نزل على محمد عدو للشياطين، يلعنهم في كل مناسبة، ويُحذِّر أتباعه منهم: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ البقرة: ٢٦٨، ويقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦. فكيف إذن يمده الشيطان ويُمليه عليه، وهو عدوه؟[98]" ولكنه ينزل به الروح الأمين. وما ينبغي للشياطين أن ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك، وما يستطيعون أن يتنزلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء. ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ الشعراء: ٢١٢ فالشياطين عن سمع القرآن من المكان الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به"[99]. "لَمَعْزُولُونَ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة"[100]. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: "لا يستطيعون أن يحملوا القرآن، ولو فعلوا ذلك لاحترقوا"[101]. وكذلك تجد "أنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛

ولهذا قال الله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي: أخبركم. ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٢، أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم، أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضًا كذبة فسقة"[102]. "فمن لا ينزل إلا بكذب وباطل لا ينزل إلا على كذاب أفاك، وكان معلومًا عندهم أن محمدًا لم يكذب قط ولا أفك أبدًا؛ إذ لم يأخذوه يكذب فيما بينهم قط، فيقول – واللَّه أعلم – كيف يتنزل عليه الشياطين وهو معروف عندكم أنه ليس بكذاب ولا أفاك، وقد تعلمون أن الشياطين لا ينزلون إلا بكذب وباطل؟!"[103].

أي أن تنزل الشياطين المقصود به أنهم مخلوقات موجودة تعيش على الأرض و"إنما قال: (تنزل) لأنها أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر في الريح"[104]، غير مُدرَكة لنا بني البشر قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف: ٢٧، فشأنهم شأن الملائكة بالنسبة لذكرهم بمصطلح (التنزيل)، أي: أنهم مادة موضوعية خارجة عن الإدارك الإنساني. ولأجل ذلك نجد من ينكر وجودهم، لعدم القدرة على إثباتهم ماديًا، والعالم مليء بالمكتشفات، فعل عدم القدرة على رؤيتنا لهم يرجع إلى الأبعاد التي خلقها الله، وهي غير مدركة لأجهزتنا المحدودة. والعلم عاجز حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية التي لا تزال خارج نطاق اختصاصه.

الخاتمة:

لقد فرق جماعة من أرباب التحقيق بين لفظتي الإنزال والتنزيل، ولكن لم يصلوا إلى معنى مضطرد يصلح لتطبيقه في جميع المواضع التي ورد فيها الإنزال والتنزيل، إلا إشارات يسيرة، وقد جمعنا أقوال العلماء ورأينا أنها لا تخرج عن المفهوم الآتي: التنزيل: هو عملية نقل موضوعي خارج الوعي الإنساني. والإنزال: هو عملية نقل المادة من غير المدرك إلى المدرك.

وقد طبقتُ هذا المفهوم على الأماكن التي ورد فيها إنزال فقط وظهرت النتائج الآتية:

1. أن ما أنزل على الملكين، هو العلوم التي لم تكن ضمن مدركاتهم، فجعلت ضمن مدركات هذين الملكين.
2. أن إنزال الأمنة المقصود بها الخبرات الحربية التي دخلت مدارك النبي ﷺ وأصحابه واستقراء الأحداث لاستنباط الأحداث.
3. أن إنزال الأنعام هو: إدخال أساليب وطرق ترويض الأنعام في مفاهيم ومدركات الإنسان، إما عن طريق طول الممارسة، أو عن طريق نبوة.
4. وأن إنزال الآية وهو معجزة كونية حسّية مشاهدة، تكون معضدة له ﷺ في دعوى النبوة، وأن تكون تلك المعجزة من جنس المعجزات التي حدثت للأنبياء قبله، أي: أن تدخل ضمن معارفهم وحدود إدراكهم.

5. وأن إنزال السكينة وهي: أفرغ الله طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين الذين كانوا معه فأحسوا بها وامتلأت قلوبهم بها وثبتت جوارحهم فعادوا أشد مما كانوا، فلذا كان ﷺ ضمن الأسباب التي جعلت السكينة تدخل مدركات المؤمنين وساعدهم رؤيته ثابتًا على الاتزان ومراجعة ما توهموه من عدم القدرة.
6. وأن إنزال الرزق هو: اكتساب المعارف والوسائل التي تجعل ذلك الرزق مهيئًا لنا متى شئنا، وتعينك للوصول إلى كيقية الانتفاع بهذا الرزق.
7. وإنزال الرجز وهو أنه كان وباء يعرفه أهل ذلك الزمن، ولربما أنهم كانوا يجدون لبعضهم دواء، ولكن هذا الرجز الذي أنزله الله عليهم لم يستطيعوا أن يجدوا له علاجًا حتى أهلك منهم الكثير، ويدل على ذلك وصفه تعالى لهذا الرجز بالإرسال في موضع آخر.
8. وأن إنزال اللباس يعني أن الإنسان كان عاريًا لا يعرف اللباس، ثم عرف بعد ذلك الغطاء، مما ولدته الحاجة وتفنُّن الناس في استعماله، ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عد.
9. وأن إنزال الحديد يقصد به إعلام الله الإنسان بعنصر الحديد وفوائده، ولا يكون ذلك إلا عن طريق نبوة، فلم يكتشف الحديد صدفة؛ لأن الله عرفنا بمنافعه التي علم من نزل عليهم القرآن، ما يشكله الحديد في وقتهم، وزدنا نحن معرفة بما زاده استخدام هذا العنصر المهم في حياتنا، وهذا هو سر معرفة الإنسان للحديد في مرحلة مبكرة، فهنا تدخل سبحانه ليعطي طفرة معرفية في استخدام الحديد.
10. تم التطبيق على الأماكن التي ورد فيها تنزيل فقط وهي؛ تنزيل جبريل عليه السلام مما يدل على أن جبريل ع غير مُدرك للنبي ﷺ حين تنزله بالقرآن وتلك الطريقة التي ينزل بها على قلب النبي ﷺ أشد طرق الوحي التي أخبر بها النبي ﷺ كما في الأثر.
11. وأن تنزيل الشياطين المقصود به أنهم مخلوقات موجودة تعيش على الأرض وإنما قال: (تنزل) لأنها أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر في الريح، غير مُدرَكة لنا بني البشر، فشأنهم شأن الملائكة بالنسبة لذكرهم بمصطلح (التنزيل)، أي: أنهم مادة موضوعية خارجة عن الإدراك الإنساني.

فهذا جهد المقل في معرفة شيءٍ من بحر العلوم المكنونة في كتاب الله المجيد، وما نريد بما توصلنا إليه تميزًا أو رفعة، إن نريد إلا الإصلاح ما استطعنا، وما التوفيق إلا بالله، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى نور الحق والفهم، وامنن علينا بمعرفة العلم، وسهل أخلاقنا بالحلم، و{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}.

الهوامش:

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: (5/ 417)، وينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد: (367/7).

(2) ينظر: لسان العرب، ابن منظور: (656/11).

(3) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي: (479/30). بتصرف.

(4) قياساً منه على استخدام العرب للكلمة في بادية واستخدام مرادفها في بادية أخرى، وعلى الشعر الذي لا يعيبه الحشوية ولا الترادف.

(5) وقد بينا أقوال العلماء في بحث الفرق بين الإنزال والتنزيل دراسة نظرية، مجلة جرش، المجلد الثاني والعشرون، العدد الأول.

(6) ذهب إلى القول بالفرق بين اللفظتين جمع من اللغويين والمفسرين، فالفرق بين اللفظتين قول الواحدي، والزمخشري، والراغب الأصفهاني، وابن فارس، والسمين الحلبي، وابن الزبير الغرناطي، وغيرهم.

(7) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: (16/2 – 19)، ومعبد، محمد أحمد محمد معبد، نفحات من علوم القرآن، (القاهرة: دار السلام، ط2، 1426 هـ /2005 م)، ص53- 54.

(8) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص799، و بيان المعاني ملا حويش: (295/2).

(9) الأمثل في التفسير، الشيرازي: (1/ 197).

(10)"بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية، ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح" . تفسير المنار، رشيد رضا: (1/ 330).

(11) تفسير أبي السعود: (1/ 138).

(12) ينظر: إعراب القراءات الشاذة، العكبري: (96/1).

(13) تفسير المنار: (1/ 332).

(14)المصدر نفسه: (1/ 331).

(15) "والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنما تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين". تفسير السعدي: (ص: 61).

(16) ينظر: تفسير الطبري: (317/7)، وتفسير ابن كثير: (144/2)، والسيرة النبوية أبن هشام: (64/4).

(17) تفسير السعدي: (ص: 153).

(18) تفسير الرازي: (9/ 393).

(19) تفسير المنار: (4/ 153).

(20) تفسير الماتريدي: (2/ 510).

(21) المصدر نفسه.

(22) تفسير السعدي: (ص: 153).

(23)ينظر: قصص الأنبياء: (ص62 – 68) بتصرف.

(24) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 520)، التفسير الوسيط، لطنطاوي: (12/ 198)، التفسير القرآني للقرآن: (12/ 1120).

(25) ينظر: الكشاف الزمخشري: (4/ 114)، تفسير أبي السعود: (7/ 243)، تفسير الثعلبي: (8/ 222)، تفسير البيضاوي: (5/ 37).

(26)تفسير ابن جزي: (2/ 217)، تفسير الرازي: (26/ 424).

(27) في ظلال القرآن: (5/ 3039).

(28) تفسير الماتريدي: (8/ 659).

(29) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: (1/ 339).

(30) إن دخلت «لولا» على جملة اسمية، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء، كقول إنسان لآخر: لولا زيد عندك لأتيتك، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده. وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود، وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض. تفسير الشعراوي: (10/ 5832).

(31) تفسير الطبري: (15/ 48). وينظر لمعاني الآية في القرآن: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري: (ص91).

(32) تفسير أبي السعود: (4/ 133).

(33) ينظر: تفسير ابن كثير: (4/ 257)، وتفسير المنار: (11/ 270).

(34) تفسير الرازي: (19/ 13).

(35) تفسير ابن كثير: (4/ 454).

(36) تفسير الرازي: (19/ 39).

(37) تفسير ابن كثير: (4/ 434).

(38) وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان: عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعناد، وعذاب من لم يؤتوا ذلك وهو خذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة. تفسير المنار: (11/ 270).

(39) إنزال وتنزيل (آية) مما فاتنا في بحث الفرق بين الإنزال والتنزيل، دراسة نظرية.

(40) وزعموا أن السكينة معربة عن (شكينا) في اللغة العبرانية. كما في سفر صموئيل من سفر الملوك الأول في الأصحاح الرابع وما بعده. تفسير القاسمي: (2/ 182).

(41) ينظر: كتاب العين (5/ 313)، والصحاح: (2136/5).

(42) التعريفات (ص159)

(43) تفسير الرازي: (16/ 19). وينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: (ص411).

(44) تفسير الماتريدي: (5/ 326).

(45) تفسير الطبري: (5/ 329).

(46) تفسير السعدي: (ص: 332).

(47) التحرير والتنوير، ابن عاشور: (26/ 149).

(48) والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى. تفسير ابن عطية: (1/ 333).

(49) وفي قوله: (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنه سماهم مؤمنين بعد ما كان منهم التولي، والتولي لم يخرجهم من الإيمان على ما قالوا. المرجع السابق.

(50) التفسير الوسيط للزحيلي: (1/ 849).

(51) تفسير الرازي: (16/ 19).

(52) التفسير المظهري: (4/ 163).

(53) تفسير الرازي: (28/ 79).

(54) في ظلال القرآن: (6/ 3326).

(55) في ظلال القرآن: (6/ 3312).

(56) تفسير الرازي: (28/ 84).

(57) تفسير الشعراوي: (10/ 6007).

(58) ذكر أبو السعود: أن المرادَ بالرزق ما حل لهم وجعلُه منزلًا لأنه مقدّرٌ في السماء محصّلٌ هو أو ما يتوقف عليه وجودًا أو بقاءً بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين. تفسير أبي السعود: (4/ 156).

(59) تفسير الطبري: (15/ 111).

(60) تفسير المنار: (11/ 335).

(61) تفسير المنار: (11/ 335).

(62) تفسير الماتريدي: (6/ 56).

(63) في ظلال القرآن: (3/ 1781).

(64) تفسير الشعراوي: (10/ 6005).

(65) الصحاح: (3/ 878).

(66) تفسير ابن كثير: (1/ 277).

(67) تفسير المنار: (1/ 269).

(68) التفسير المنير للزحيلي: (1/ 166).

(69) مسند أحمد: ح (1491)، وقد جاء في حديث: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: (الطّاعونُ رِجْزٌ أُرسِل على طائفةٍ من بني إسرائيل). الموطأ: ح (1588)

(70) تفسير الرازي: (15/ 390)، تفسير الشعراوي: (7/ 4403).

(71) تفسير ابن عطية: (1/ 151).

(72) التفسير المنير للزحيلي: (8/ 168).

(73) التفسير الوسيط للزحيلي: (1/ 645).

(74) ينظر: تفسير السمرقندي: (1/ 509)، تفسير الرازي: (14/ 221)، التفسير المظهري: (3/ 338)، تفسير الألوسي: (343/4)، تفسير الثعلبي: (4/ 225)، وغيرها.

(75) الكشاف: (97/2).

(76) ينظر فتاوى ابن تيمية: (255/12) وتفسير القاسمي: (5/ 27).

(77) تفسير الماتريدي: (4/ 393).

(78) التفسير الوسيط لطنطاوي: (5/ 260).

(79) تفسير المراغي: (8/ 125)، ثم أكمل بكلام جميل قال فيه: "ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة في استعمالها، فالإسلام دين الفطرة وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة. وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله في الخليقة" ا هـ. فالتفاح يسقط كل يوم والناس يرون هذه الظاهرة متكررة وعندما توصلوا إلى سبب سقوطها صار ذلك (إنزال) وهو اكتشاف الجاذبية.

(80) ينظر: كتاب العين: (344/7)، وتاج العروس: (196/29).

(81) أحدث اختراع ماكينة الخياطة من قِبل (إلياس هاو) من كونيتيكت عام 1846م ثورةً تكنولوجيّةً، وصناعيّةً، واجتماعيّةً، إذ أصبحت صناعة الملابس من الأمور الرخيصة والسريعة، وساهمت أيضًا في إنشاء أكبر وأحدث مصانع الغزل والنسيج، وغيّرت الطريقة التي يتم فيها تصنيع الملابس، وساعدت نساء الطبقات الوسطى على إثبات قدرتهنّ في إتقان العمل بالآلات المعقدة، وبالتالي أصبحت ماكينة الخياطة ذات قدر مقارنةً مع أي آلة أخرى، وفي العصر الحديث أصبحت الخياطة رمزًا إلى عمل المرأة.

(82) تأويلات أهل السنة: (4/ 393).

(83) تفسير الكشاف: (2/ 97).

(84) ينظر: مجاز القرآن: (1/ 213)، وفي ظلال القرآن: (3/ 1278).

(85) لذا وجد في الآثار أن معظم استخدامات الحديد اعتمدت على الحديد النيزكي من قبل الإنسان القديم، حتى الحديد الذي كان يعثر عليه بالتنقيب كان يظن أنه من الحديد النيزكي نزل من السماء فكانوا يسمونه (معدن السماء)، لعدم وجود الوسائل التي تميز لهم النازل من غيره.

(86) شبكة بيان الإسلام: https://xwww.mutah.edu.jo/eijaz/ironarabic.htm

(87) تفسير ابن عطية: (1/ 183).

(88) "من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود: إن جبريل عدوهم قالوا: لأنا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحدا من سلفهم لم يقل بذلك، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق، ولأن جهلهم كان شديدا وهم الذين قالوا، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة [الأعراف: 138]". تفسير الرازي: (3/ 611).

(89) تفسير الطبري: (2/ 377).

(90) تفسير الماتريدي: (1/ 517).

(91) تفسير الرازي: (24/ 530).

(92) تفسير الكشاف: (3/ 334).

(93) مفاتيح الغيب: (24/ 530).

(94) زهرة التفاسير: (1/ 328).

(95) كتاب العين: (6/ 237)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (5/ 2144).

(96) فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر، وعندهم وادٍ يُسمَّى وادي «عبقر» هو وادي الجن، فيقولون: فلان عبقري أي: موصول بالجن في هذا الوادي. تفسير الشعراوي: (17/ 10701).

(97) وقد حكم الألباني على جميع طرق الأثر بالضعف. ينظر نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق: (ص35).

(98) تفسير الشعراوي: (17/ 10701).

(99) تفسير الطبري: (19/ 403).

(100) تفسير البيضاوي: (4/ 151).

(101) تفسير السمرقندي: (2/ 569).

(102) تفسير ابن كثير: (6/ 172).

(103) تفسير الماتريدي: (8/ 92).

(104) تفسير القرطبي: (13/ 145).

مصادر البحث:

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبي السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
2. الأمثل في التفسير، الشيرازي، ناصر مكارم الشيرازي، قم: سليمان زادة، ط1، 1384هـ.
3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، عبدالله بن عمر الشيرازي، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ.
4. بيان المعاني، ملا حويش آل غازى عبد القادر، دمشق: مطبعة الترقي، د ط، 1382هـ.
5. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط، د. ت.
6. تأويلات أهل السنة، الماتريدي، محمد بن محمود، أبو منصور، تحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1426هـ - 2005م.
7. التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ/2000م.
8. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، محمد بن أحمد الكلبي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط1، 1416 هـ.
9. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، د.ط ، 1997م.
10. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
11. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.
12. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، د.ط، د.ت.
13. تفسير المراغي، المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1365هـ - 1946م.
14. التفسير المظهري، المظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية – الباكستان، ط1، 1412هـ.
15. التفسير الوسيط لطنطاوي، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1997م.
16. التفسير الوسيط للزحيلي، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1422هـ.
17. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ- 2000م.
18. جامع البيان في تأويل أي القرآن، الطبري، محمد بن جرير، تحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
19. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق : سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423هـ/ 2003م.

20. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني، تحقيق: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ.
21. زهرة التفاسير، أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، دار الفكر العربي، ط1، د ت.
22. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين، بيروت، ط4، 1407هـ - 1987م.
23. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط17، 1412هـ.
24. كتاب العين، الفراهيدي، الخليل بن أحمد، تحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
25. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
26. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1422،هـ - 2002م.
27. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، دار صادر، بيروت، ط3، سنة: 1414هـ.
28. مجاز القران، أبو عبيدة، معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط1، د. ت.
29. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق : أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426هـ / 2005م.
30. محاسن التأويل، القاسمي، محمد جمال الدين الحلاق، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه – بيروت، ط1، 1418هـ.
31. المحرر الوجيز، بن عطية، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.
32. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مصر، ط1، 1399هـ - 1979م.
33. مفاتيح الغيب، الرازي، محمد بن عمر التميمي، ار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1421هـ - 2000م.
34. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دمشق دار القلم، الدار الشامية، ط1، 1412هـ.
35. مناهل العرفان، الزرقاني، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، د. ت.
36. نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد محمد معبد، القاهرة: دار السلام، ط2، 1426هـ / 2005م.

Quranic reflections of what is "Inzaal" or "Tanzeel,.

Dr. Nabil Mubarak Ajrah.
Associate Professor of the Qur'an and its Sciences, College of Sharia, Al-Rayyan University.

Abstract:

One of the rules useful for understanding the wise revelation is the rule: There is no synonym in the Book of God (Qur'an). This rule shows the accuracy of God's words revealed to Muhammad , and that it is different from the speech of the Arabs, which is neither defective nor visceral, and from the accuracy with which the revelation was characterized, we can reach precise meanings. We differentiate between the words that are thought to be synonymous, even if their origin is the same and their premises are different. The increase in the building indicates the increase in meaning among these words are my words; *"Inzaal" or "Tanzeel,*., and I have clarified the concept that is intended from them in the words of God, then I applied this concept to the things in which there is only, "*Inzaal" or "Tanzeel,*. This research includes; an introduction, and a preface in which the meaning of the two terms was clarified, both linguistically and idiomatically, then the first topic, in which the concept is applied to what is mentioned in it , then the second topic, in which it is applied to what is contained in, and a conclusion that includes the core of what came in this research.